الأوضاع الداخلية لدولة الخلافة العباسية

أ- العلاقة مع الأتراك

انتقلت عاصمة الخلافة من بغداد إلى سامراء، التي ظلت ما يقرب من خمسين عاماً حاضرة دولة الخلافة العباسية ، واضحت مقراً للعصبية التركية الجديدة. ومنذ عهد المعتصم أخذت تظهر على مسرح الحياة السياسية شخصيات تركية أدّت دوراً كبيراً في الحياة العامة ، لعل أبرزها الأفشين و أشناس وإيتاخ و وصيف وسيما الدمشقي . وقد خدموا الدولة وساندوها في حروبها الداخلية ضد الحركات المناهضة التي نشبت في أجزائها المختلفة ، وفي حروبها الخارجية ضد الأمبراطورية البيزنطية . ومع مرور الزمن بدأ هؤلاء الأتراك يتجهون إلى تكوين كيان خاص بهم سواء في كنف الخلافة أو منفصلاً عنها، كما طمع بعضهم في الاستئثار بشؤون الحكم في العاصمة حين أدركوا أن الخلافة لا يمكنها الاستغناء عن خدماتهم.

وتعتبر خلافة الواثق بن المعتصم (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ/ ٨٤٢ -٨٤٧ م) فترة انتقال بين عهدين. الأول هو عهد سيطرة الأتراك على مقدرات الدولة مع بقاء هيبة الخلافة . والثاني هو عهد سيطرة الأتراك مع زوال هيبة الخلافة و هبوط مكانة الخلفاء .

لقد ثبت الأتراك في عهد الواثق أقدامهم في الحكم، وحصل رؤساؤهم على نفوذ كبير، حتى اضطر الخليفة أن يخلع على أشناس لقب السلطان معترفاً له بحقوق تتجاوز نطاق المهام العسكرية فكان بذلك أول خليفة استخلف سلطانا. وأسند إليه أعمال الجزيرة وبلاد الشام ومصر كما عهد إلى إيتاخ بولاية خراسان و السند وكور دجلة .

نتيجة لهذا التوسع في الصلاحيات، هيمن الأتراك على دار الخلافة وأحكموا سيطرتهم الفعلية على كافة أقاليمها، ثم خطوا خطوة أخرى حين اعتقدوا أنه لا بد من السيطرة على شخص الخليفة حتى يستمر سلطانهم باعتباره مصدر هذا السلطان . فأحاطوا به يراقبون تحركاته، ويشاركون في المناقشات السياسية، فلم يذهبوا إلى ولاياتهم ، وأنابوا فيها عمالاً عنهم. وقد شكل هذا التدبير خطوة سياسية على طريق انفصال الولايات عن الإدارة المركزية. إذ طمع الوكلاء بولايتهم واستقلوا بها منتهزين فرصة ضعف السلطة المركزية، وعدم معرفة الخليفة بما يجري في الولايات لاطمئنانه الى من ولاهم من الاتراك .

وخطا الأتراك خطوة أخرى أيضاً، في سبيل تشديد قبضتهم على الخلافة ، فأخذوا يتدخلون في اختيار الخلفاء وتوليتهم. وكان الواثق هو آخر الخلفاء الذين تمت توليتهم على التقليد الذي كان متبعاً من قبل. ثم مات الواثق ولم يعهد لابنه محمد بفعل صغر سنه ، فنشب الصراع بين فئتين رئيستين بشأن اختيار الخليفة . تألفت الفئة الأولى من كبار رجال الدولة من أبناء البيت العباسي والوزير محمد بن عبد الملك الزيات وكبير القضاة أحمد بن أبي دؤاد ، وقد رشحت محمد بن الواثق ، وتمثلت الفئة الثانية بقوة الأتراك النامية التي كانت تعمل على تثبيت نفوذها بزعامة وصيف التركي ، وقد رشحت جعفر بن المعتصم. وقد نجحت هذه الفئة في فرض مرشحها للخلافة . وبذلك أسند منصب الخلافة إلى جعفر ولقب بـ «المتوكل» .

وقد شكلت هذه الحادثة سابقة خطيرة في تولية الخلفاء بعد ذلك ، إذ أضحى القادة الأتراك أهل الحل والعقد، لا تتم الخلافة إلا بموافقتهم ورضاهم ، يرفعون الرجل الذي يرتضونه والعكس صحيح. فأحكموا بذلك قبضتهم على شؤون الخلافة يصرفون الأمور بإرادتهم.

لم يخضع الخلفاء للنفوذ التركي بسهولة بل قاوموه مقاومة شديدة ، وحاولوا التخلص من (صانعي الخلفاء). لكن لم يكن لديهم من القوة الكافية ما يستطيعون بها مجابهة هذا النفوذ الطاغي.

تولى المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ/٨٤٧ـ ٨٦١م) الخلافة بقوة الاتراك وشعر هؤلاء أن الخلافة عاجزة عن الاستغناء عن خدماتهم مما ساقهم إلى مزيد من العنفوان . ولم يلبث هذا الخليفة أن أدرك حقيقة موقفهم الضاغط على الخلافة ، وشعر باستبدادهم بشؤونها ، وقلة احترامهم لشخصه. فقرر تحجيم قوتهم وبدأ بإيتاخ فتمكن من إبعاده عن مناصبه وسجنه، وتوفي في سجنه في عام (٢٣٥ هـ /٨٥٠ م).

وحتى يقطع على الأتراك طريق التدخل في اختيار خلف له ، عمد المتوكل إلى عقد البيعة لأبنائه الثلاثة بولاية العهد وهم محمد المنتصر و أبو عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد ، وقسم البلاد بينهم متبعاً ذلك التقسيم الذي جرت عليه الخلافة في عهد الرشيد ، فولي المنتصر المغرب كله، وولي المعتز المشرق كله إيضاً ، وأقطع المؤيد أجناد حمص ودمشق وفلسطين ثم أضاف للمعتز في عام (240 هـ / 854 م) خزن الأموال في جميع البلاد، ودور الضرب، وأمر أن تضرب الدراهم باسمه .

عندها أدرك الأتراك خطورة وأبعاد ذلك، واشتد حقدهم على الخليفة وعدُوا إبعادهم عن مناصبهم خطوة أولى في سبيل القضاء عليهم ، لذلك أضحت مؤامراتهم ودسائسهم لا تنقطع ، وشعر المتوكل في هذا الجو الخانق، بالضيق . ولما كان وجوده في سامراء يجعله في قبضتهم، وإذا لم يكن قادراً على تلبية مطالبهم الملحة بالحصول على المال ، فقد حاول اجتناب سيطرتهم بأن انتقل إلى دمشق وجعلها حاضرة له ، لعله يجد فيها من يقف إلى جانبه من العنصر العربي، لكن الظروف الداخلية والمناخية لم تساعده على البقاء فيها واضطر للعودة إلى سامراء بعد أن قضى فيها ثلاثة أشهر .

وبلغ العداء بين الخليفة والأتراك في هذه المرحلة نقطة اللاعودة ، وكان لابد الأحدهما من أن يتخلص من الآخر. وكان هؤلاء هم الأسرع في التحرك ، فتمكنوا من قتل الخليفة بمعاونة ابنه المنتصر الذي نقم على والده لأنه حاول تغيير ولاية العهد بتقديم المعتز عليه ، بالإضافة إلى التعارض في الرأي السياسي بينهما في مجال العلاقات مع العلويين .

كان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين. فلم يُقتل منهم من قبل إلا الأمين بعد هزيمته في الحرب، وأدّت إلى تثبيت أقدام الأتراك في السلطان والنفوذ ، كما كانت إنذاراً موجهاً لكل عباسي يريد أن يعتلي الخلافة ، أن يختار أحد أمرين: إما الإذعان التام لأهوائهم، أو القتل. وقد أثارت حادثة القتل موجة من النقمة ضد تسلط الجند التركي. فحدثت في سامراء في عام (٢٤٨هـ/ ٨٦٢ م) حركة شعبية عبّرت عن استنكار العامة لعبثهم بالخلافة .

كان طبيعياً أن يكون المنتصر (247 – 248 هـ / 861 – 862 م) الذي بايعه الأتراك ونصبوه خليفة ، خاضعاً لنفوذهم ، ولم يكن له من شيء إلا مظهر اسمي اقتصر على السكة والخطبة. وقد خشوا من المعتز والمؤيد ابني المتوكل من أن يلي أحدهما الخلافة بعد المنتصر فيأخذاهم

بدم والدهما لذلك أمروا المنتصر أن يخلعهما من ولاية العهد. لم يتجرأ الخليفة على الاعتراض وأذعن للأمر وهو كاره، وأجبر أخويه على خلع نفسيهما .

وهكذا أدرك المنتصر خطورة التسلط التركي، فكرههم وحاول التخلص من زعمائهم ، وكان يسميهم (قتلة الخلفاء) . وتنبه الأتراك لهذا الخطر المحدق بهم فتخلصوا من الخليفة بواسطة الطبيب الطيفوري الذي سمّه بمشرط حجمه به .

وتعاهد الأتراك على توحيد كلمتهم في عدم اختيار أحد من أولاد المتوكل خشية أن يقتلهم بدم أبيه واتفقوا على تنصيب أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه بـ «المستعين»، وتوزعوا المناصب الكبرى في الدولة. فقد استكتب الخليفة أحمد بن الخصيب، وعقد لأتامش على مصر والمغرب واتخذه وزيراً كما جعل شاهك الخادم على داره و كراعه وحرسه و خاص أموره وقدّمه وأتامش على سائر الناس .

- بدأ عهد المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ/ ٨٦٢ -٨٦٦ م) بحدوث اضطرابات وتطاحن على السلطة . فنشبت ثورة في سامراء باسم المعتز، واصطدم العامة والأتراك في حرب شوارع ، انتهت بانتصار الأتراك. وهاج الناس في بغداد نتيجة استبدادهم ، واجتمعت العامة بالصراخ والنداء بالنفير لكن الأتراك سيطروا على الموقف.

ويبدو أن وحدة الأتراك لم تدم. فقد انشقوا على أنفسهم بعد أن انتصروا على العامة، فاستغل المستعين هذه الخلافات وراح يتخلص من زعمائهم ، فنفى أحمد الخصيب إلى جزيرة كريت وقتل أتامش وباغر . ثم فرّ إلى بغداد للاحتماء بأهلها. عندئذ أعلن الأتراك خلعه وبايعوا المعتز الذي تكتل حوله معظم قادتهم ، في حين ساند أهل بغداد وبعض القادة الأتراك ممن فرّ إلى هذه المدينة ، الخليفة المستعين . ونشبت الحرب بين الطرفين فكانت بغداد وجوارها مسرحاً لها. لكن الأتراك نجحوا في استعادة وحدتهم فأضحى موقف المستعين ضعيفاً. فانفض عنه محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد بعدما أدرك حراجة موقفه ، فآثر التنازل عن الخلافة ، بالرغم من مساندة العامة له. وبويع للمعتز بالخلافة (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ - ٨٦٩ م). وخرج المستعين إلى منفاه بالبصرة ، لكن الأتراك خشوا من بقائه حياً لذا عمدوا إلى قتله .

لم تكن ظروف الخلافة في عهد المعتز بأفضل حالاً. ذلك أن الخليفة عاد إلى سامراء ووقع تحت تأثير النفوذ التركي. ومن جهة أخرى ، ازداد استبداد الأتراك ، وكثرت اضطراباتهم ، ومطالبتهم بالمال ، وعجز الخليفة عن تلبيتها مما أدى إلى إقدامهم على خلعه وتنصيب أخيه المؤيد. لكن الخليفة أجبر أخاه على خلع نفسه ثم قتله، وتخلص من بعض الزعماء الأتراك مثل وصيف وبغا باعتبارهما مسؤولين عن الحرب الأهلية التي وقعت بينه وبين المستعين .

وأدرك الأتراك مرامي الخليفة فتحركوا للمحافظة على حياتهم ومكتسباتهم ، فأرغموه على خلع نفسه وأسندوا الخلافة إلى محمد بن الواثق ولقب بـ (المهتدي) وسلموا المعتز إلى من يعذبه حتى مات .

كان المهتدي (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ - ٨٧٠ م) ورعاً تقياً شديد الرغبة في الإصلاح. فبدأ بنفسه. فتجرد من أبهة الحياة وزخرفها، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وحرّم الشراب ، ونهى عن القيان وأظهر العدل، وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب بالناس ويؤمهم ، وأشرف على الدواوين ، وأخذ ينظر في المظالم ، فبنى قبة لها أربعة أبواب سماها قبة المظالم، كان يجلس فيها للعام والخاص . فثقلت وطأته على العامة والخاصة فاستطالوا خلافته حتى اعتراهم الضجر من تلك المدة.

توقع المهتدي أن تؤتى سياسته الإصلاحية ثمارها، لكن الأوضاع العامة داخل الدولة وخارجها لم تسمح بذلك، فقد ثار العامة في بغداد ضد حكمه ، ثم تبعهم الجند بسبب التأخر في دفع أرزاقهم ، وأذكى الطالبيون نار الثورة في كثير من الأقاليم ونشبت ثورة الزّنج التي هددت كيان دولة الخلافة العباسية زهاء أربعة عشر عاماً، وثار الخوارج في الموصل ، كما ثار أحمد بن عيسى بن الشيخ والي فلسطين والأردن .

لكن علة الخلافة الحقيقية كانت تكمن في هيمنة الأتراك عليها ، وأضحى التخلص منهم ضرورة ملحة لنجاح الإصلاح، واستعادة الخلافة لهيبتها. لذلك قرر الخليفة، أن يضرب القادة الأتراك بعضهم ببعض. إلا أن محاولته باءت بالفشل واتفقت كلمة الأتراك على التخلص منه .

وبايع الأتراك بعد قتل المهتدي، لأبي العباس أحمد بن المتوكل ولقب بـ «المعتمد» (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ - ٨٩٢ م). ونتيجة لازدياد الخلافات الداخلية بينهم ، طلب الأتراك من الخليفة أن يولي أحد إخوته إمرة الجيش، فولى أخاه أبا أحمد طلحة الموفق. ويُعدّ هذا الرجل نبراس الفاعلية في انتعاش الخلافة منذ عهد المعتمد. فهو الرجل الذي جمع الأمور كلها في يده، وأبقي للخليفة الخطبة والسكة والتسمّي بإمرة المؤمنين. فانكسرت بذلك شوكة الأتراك خاصة بعد هزائمهم أمام الزنج وعجزهم عن مقاومة المد الانفصالي وقيام الدول الانفصالية .

لكن الموفق توفي في عام (٢٧٨ هـ/٨٩١ م) وكانت الخلافة لا تزال بحاجة إلى رجل قوي يحافظ على مكتسباتها، لذلك خلع المعتمد ابنه المفوض من ولاية العهد بعد أن أظهر عجزاً في مجال الصراع الذي احتدم بين الخلافة وخصومها ، وبايع الابن الموفق أبي العباس المعتضد ثم ما لبث الخليفة أن توفي فجأة بعد عدة أشهر .

سلك المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ - ٩٠٢ م) نهج والده في حروبه وأعماله الادارية بهدف استمرارية إنعاش الخلافة ، وتثبيت هيبتها واستمر في عهده تراجع نفوذه الأتراك. خلف المعتضد بعد وفاته ابنه المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ/٩٠٢ - ٩٠٨ م) وتفاقم في عهده أمر الحركات الانفصالية والثورية من إسماعيلية وقرامطة وعبيدية ، وبذل الخليفة جهداً كبيراً في قمعها فنكل بالقرامطة وأقرّ سلطان الخلافة على بلاد الشام، وأزال نفوذ الطولونيين من مصر وأعادها إلى حظيرة الدولة .

لم يعمّر المكتفي طويلاً، وتوفي ولمّا يمض ستة أعوام على خلافته ، فعادت الخلافة من بعده إلى ضعفها، بفعل الخلافات الأسرية داخل البيت العباسي ، وتفاقم الحركات الانفصالية ، مما أتاح للأتراك استعادة قوتهم وعادوا إلى نهجهم السابق في اختيار خلفاء ضعاف الاستمرار نفوذهم، فعارضوا ترشيح عبد الله بن المعتز لمنصب الخلافة لأنه كان كفئاً واختاروا أبا الفضل جعفر بن المعتضد وكان في الثالثة عشرة من عمره فولوه الخلافة وتلقب بـ «المقتدر» .

لم يكن المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ/٩٠٨ - ٩٣٢ م) على مستوى الأحداث الشائكة التي تحيط به، ولما شب عكف على لذاته ، وترك أمور الدولة في إدارة مؤنس التركي، وبرزت في عهده ظاهرة تدخل النساء في أمور الدولة، وانتشرت في أيامه الفتن في الداخل والخارج. فثار عليه رجال الجيش بفعل سوء الأوضاع الداخلية و فساد الحكم، وخلعوه عن العرش وبايعوا عبد الله بن المعتز. ولقبوه بـ «الراضي» ويبدو أن بعض القادة الأتراك ممن استمروا على ولائهم للمقتدر مثل مؤنس الخادم ومؤنس الخازن، وغريب خال المقتدر، نجحوا في إعادته إلى السلطة وسجنوا عبد الله بن المعتز .

عادت الأمور إلى ما كانت عليه من الفوضى والإسراف في المال من جانب الحاشية والخدم كما ازداد تسلط النساء، فاشتكى الجيش من هذه الحالة ووقعت الوحشة بين الخليفة ومؤنس الخادم وانتهى الأمر بقتل الأول لليلتين بقيتا من(شوال في عام ٣٢٠ هـ/ تشرين الثاني عام ٩٣٢ م) ومبايعة محمد بن المعتضد بالخلافة ، ولقب بـ (القاهر) .

لم تكن خلافة القاهر القصيرة (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ/ ٩٣٢ -٩٣٤ م) خيراً من خلافة المقتدر، فقد استمر شعب الجند وغدا منصب الخلافة مرة أخرى ، هدفاً للازدراء وحاول مؤنس الخادم الاتفاق مع الوزير ابن مقلة الخروج على الخليفة ، لكن القاهر الذي رأى في القادة الأتراك أعداء لدولته استطاع أن يتخلص من هذا القائد التركي وعلى الرغم من قوة القاهر وقسوته فإن القادة تمكنوا أخيراً من القبض عليه وخلعوه وسملوا عينيه ولم يسمل قبله أحد من الخلفاء وبايعوا للخليفة الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٠ م) .